رسالة الغفران من خليل حاوي الى بيروت

عامر بوعزة

حِينَ كَانَتِ الهَزِيمَةُ تَتَجَوَّلُ في شَوَارِعِ بَيْرُوتْ . .
وَكَانَ الدَّمَارُ يَعْصِفُ بالأَرْصِفَةِ، وَالأَشْجَارِ، وَالمَبَانِي . .
كَانَ الشَّاعِرُ يُرَتِّبُ في حَقَائِبِه الأَغَانِي . .
وَيَسْتَعِدُّ لِلرَّحِيل
- حزيران ١٩٨٢ -
كَانَ المَوْتُ بَطِيئاً . .
وَكَانَتْ بَيْرُوتُ تَنَامُ عَلَى وَقْعِ أَقْدَامِ الغُزَاة
وَهُمْ يَقْتَحِمُونَ صَلاَةَ الأَرْزِ في لَيْلِ صِنِّينَ الطَّوِيلْ . .
كَانَ المَوْتُ بَطِيئاً . .
وَكَانَتْ بَيْرُوتُ شَاهِدَةً عَلَى نِهَايَاتِ تَمُوزَ
كَانَتْ بَيْرُوتُ أُغْنِيَةً . .
وَكَانَتْ مَرْيَمُ العَذْرَاء تَبْكِي لِلْكُرُومُ وَلِلْغُرَبَاءْ . .
هَكَذَا تَمُوتُ المَدِينَةُ العَرَبِيَّةُ كَالفَرَاشَةِ الحَالِمَةْ
لَيْسَتْ أَوَّلَ مَرَّةٍ يَقْتَحِمُ فِيهَا الغُزَاةُ مَزَايَانَا
وَيَتَجَوَّلُونَ في أَزِقَّةِ أَصْوَاتِنَا . .
وَلَكِنَّهَا أَوَّلُ مَرَّةٍ يَمُوتُ فِيهَا الشُّعَرَاءُ . . دُوَن أَنْ يستأذنوا السُّلُطَاتْ . .
كَانَ المَوْتُ يُطِلُّ عَلَى بَيْرُوتُ مِنَ الشُّرُفَاتِ . .
يُدِيرُ أَعْنَاقَ الجُنُودِ وَالفُقَرَاءِ وَالقِدِّيسِينَ والمُومِسَاتْ . .
نَحْوَ رَصَاصَةٍ مُكْتَظَّةٍ بالصَّمْتِ والرُّؤيَا تَفِيضُ عَلَى جُدْرَانِ بَيْرُوتَ الحِصَارْ:
الرَّصَاصَةُ لَمْ تَخْتَرِقْ خليل حَاوي . .
لَكِنَّهُ هُوَ الذِي اِخْتَرَقَهَا . .
وَحِينَ يَقِفُ أَمَامَ الله . .
سَيُنَاقِشُ تَفَاصِيلَ الهَزِيمَةِ . .
وَأَبْجَدِيَاتِ الوَعْيِ السِيَاسِي . .
وَإِمْكَانَ التَعَايُشِ بَيْنَ الوَرْدَةِ والصَّهِيلْ . .
الشَّاعِرَ مَاتْ . .
وَحِينَ يَقِفُ أَمَامَ الله
سَيَحْمِلُ قِيثَارَةً
وَيُغَنِي لأَجْمَلِ بَيْرُوتٍ . .
سَيَعْتَذِرُ عَنْ دَمْعَةٍ فَاجَأَتْهُ
قُبَيْلَ أَنْ يَمْضِي حَزِيناً إِلَى صِنِّينْ . .
عَلَى بَابِ غُرْفَتِهِ . .
كَانَ المُتَنَبِّي وَجَبْرَانْ يَحْتَرِقَانْ . .
كَانَتْ شَهْرَزَادُ خَارِجَةً لِتَوِّهَا مِنَ الحَمَّامْ
لِتَدْخُلَ طَقْسَ النُبُوءَةِ مِثْلَ كُلِّ السَّنَابِلِ . .
وَحِينَ يَقِفُ الشَّاعِرُ أَمَامَ الله . .
سَيَفْتَحُ بَابَ غُرْفَتِهِ لِتَخْرُجَ مِنْهَا سُلاَلَةُ الأَجْزَانْ . .
وَتَرْكُضَ الأَشْجَارِ في طُرُقَاتِ الجَنُوبِ
كَأَجْمَلِ حُرِّيةٍ . .
كَانَت الكُرُومُ وَالأَعْيَادُ وَخَمْرُ الكَنَائِسِ
في اِنْتِظَارِ الطَّلْقَةِ الأُولَى . .
وَكَانَتْ بَيْرُوتُ شَاهِدَةً عَلَى عَصْرِ التَّحَولِ
مِنْ نِهَايَاتِ المَعَارِفِ إِلَى بِدَايَاتِ الحَجَرْ
كَانَتْ لَحْظَةَ جَمْرٍ وَرُؤيَا . .
وامْتِدَاداً لِلْحُقُولِ عَلَى الصَّفْحَةِ الأُولَى مِنْ جَوَازِ السَّفَرْ
وَكَانَ الشَّاعِرُ يُمْشِي وَرَاءَ جَنَازَتِه . .
وَيُحَاوِلُ لِلمَرَّةِ الأَخِيرَةِ . . أَنْ يَجِدَ الطَّرِيقَ . .
إِلَى بَيْرُوتْ

(المنستير - تونس ١٩٩١)

(*) «قوموا ارجعوا للبيت يا أحبابنا، عودوا إلى الأرض التي اقتلعت جنوب الأرض من أضلاعنا»، م. درويش